تاريخ النقد الأدبي عند العرب

من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري

بقلم

أ/ طه أحمد إبراهيم

لعل النقد الأدبي من أهم الدراسات، وألزمها لتذوق الأدب، وتأريخه، وتمييز عناصره، وشرح أسباب جماله وقوته، ورسم السبيل الصالحة للقراءة والإنشاء.

ولتنظيم دراسته، وإقامته على أسس سليمة، وسلوكه خطًا واضحة ليستطيع النهوض بواجبه بين الدراسات الأدبية الأخرى، لا بد من الوقوف عند النقد من حيث هو فن له أصوله وطرائقه، ومن حيث ماضيه وأطواره.

وكلا من الناحية الفنية والتاريخية متلازمتان وكلاهما يتم الآخر ويُعينه، ثم يلتقيان آخر الأمر، فيكونان لنا فن النقد الأدبي أو علم ذلك، ونتخذه مقياسًا نحكم به على الأدب العربي القديم، ومصباحًا نهتدي به في إنشاء الأدب العربي الحديث.

في هذا الكتاب فصول في نقد الأدب العربي، تُساير هذا الفن في أطواره التاريخية ومظاهره في الأدب العربي منذ نشأته في الجاهلية إلى اليوم؛ فهي تسجل الأصول التي اتخذها النقاد في كل عصر أساسًا لأحكامهم اللفظية والمعنوية، والعوامل التي أبقت على هذه الأصول أو غيرتها، ثم المؤثرات التي عرَّضت الأحكام للحق أو الباطل، ومظاهر الحضارة العربية والأجنبية التي كان لها سلطان على فن النقد الأدبي فسارت به في طريقه الطبعي أو وقفته عند حد لا يتعداه.

وقد تميز المؤلف بالذوق الأدبي الصادق، فلقد بلغ من صدق الحس، وصفاء الشعور درجة نادرة، لم تخطيء مرة في نقد الأدب وتقديره. وكانت أعراض التكلف تصادف منه نفورًا شديدًا سواء في الطبائع وفي الأساليب. وقد قام زملاؤه في قسم اللغة العربية بكلية الآداب بنشر هذه الفصول وفاء له، وبرا بجهده العالمي، وإشادة بحق الأموات على الأحياء.

فِهْرِسُ ٱلمَوضُوعَاتِ

الموضوع	صفحة
* تمهيد	٧
* مقدمة	١٥
* الباب الأول: النقد في العصر الجاهلي	٢٣
* الباب الثاني: النقد عند الأدباء في صدر الإسلام	٤٥
* الباب الثالث: أثر متقدمي النحويين واللغوين في النقد الأدبي	٧٣
* الباب الرابع: محمد بن سلام الجمحي وكتابه طبقات الشعراء	١٠٥
* الباب الخامس: الخصومة بين القدماء والمحدثين	١٢٥
* الباب السادس: النقد في القرن الثالث	١٥٣
* الباب السابع: النقد في القرن الرابع	١٩١

عينة للقراءة

تمهيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

- ١ -

عينة للقراءة

لعل النقد الأدبي - على حداثة العناية به في مصر - من أهم الدراسات الأدبية، وألزمها لتذوق الأدب، وتأريخه، وتمييز عناصره، وشرح أسباب جماله وقوته، ورسم السبيل الصالحة للقراءة والإنشاء.

لهذا كان ملتقى عناية الكتاب والدارسين مذ فجر هذه النهضة الحديثة في الشرق العربي، فهبوا يتناولون هذه الناحية من الدرس الأدبي، متجهين فيها اتجاهين مختلفين تبعًا لما أتيح لكل فريق من الثقافة، ولما تيسر له من الاطلاع.

فأولئك الذين درسوا الآداب الغربية، ووقفوا على ما فيها من أصول النقد الأدبي وطرائقه، وعلى هذه المذاهب السياسية والاجتماعية التي طبعت آثار الكتاب المحدثين بطوابعها الخاصة، حاولوا أن يفرضوا هذه المذاهب والأصول على الأدب العربي فرضًا، واجتهدوا مخلصين أو عابثين أن يجدوا في نصوصه مُثُلًا لما حفظوا من قواعد وقوانين؛ فإن ظفروا من ذلك بما اشتهوا حمدوا لأنفسهم مَغَبَّة هذا الكشف الخطير. وأما إذا تنكر لهم هذا الأدب العربي، وأبى عرفان هذه الآراء

المنقولة، والمذاهب المستحدثة، فهو أدب متأخر فقير، يستعصى على الإصلاح، ولا يمت إلى هذه الحضارة بأوهى الأسباب.

وعندي أن هذا الفريق أخطأ خطأين أساسيين:

أحدهما: أن الأدب العربي الذي يطالبونه بهذه المذاهب الكتابية والفنية التي فاضت بها الآداب الأجنبية، كان ولا يزال أدبًا قديمًا، نشأ منذ عهد بعيد، وفي بيئات طبَعية، وعقلية، واجتماعية تخالف هذه البيئات التي أنشأت الأدب الحديث؛ فليس من المعقول أن يتساوى النوعان، وليس من الإنصاف وصدق الموازنة أن نلتمس في أدبنا القديم خواص قد لا يواتيه بها عصره الماضي، ولا بواعثه الغابرة.

ثانيهما: أن قوانين النقد الأدبي وأصوله، لا تُفرض على الأدب فرضًا، وتُلقى عليه إلقاء؛ وإنما يجب أن تُستنبط من نصوصه الممتازة على أنها خواص وُجدت فيها فأكسبتها القوة والجمال، وجعلتها قادرة على التأثير والخلود.

هذا هو الوضع الطبعي لهذا النوع من العلوم الأدبية فإن قواعد النحو والعروض كانت استنباطًا من التراكيب الصحيحة، والأوزان المتّبعة؛ وهكذا نجد العلم يتأخر عن الفن، ويعتمد عليه في وجوده؛ وإذًا، فليس الأدب جميلًا لأنه وافق قوانين سماوية رسمها الوحي واحتذاها الأدباء، كلا، فالأمر عكس ذلك، أي أن هذه الأصول النقدية اكتسبت بقاءها بسبب أنها وُجدت في الأدب القوي، وكانت من صفاته ومميزاته.

ونتيجة ذلك أن قوانين النقد العربي يجب أن تنشأ من دراسة أدبه، وتؤلف من خواصه وطوابعه الممتازة ... كيف، بالله، نعكس الأوضاع

عينة للقراءة

ونتخذ من سمات الأدب الغريب وفنونه الجديدة مطالب نتحدى بها هذا الأدب العربي القديم؟ إنا، إذا لظالمون.

ومع ذلك فلست أنسى أن هناك صفات عامة هي من طبيعة الفن الأدبي القويم، وهي حق مشترك بين الآداب العالمية تتصل بنقدها وغاياتها، من ذلك صدق الشعور، وصحة التفكير، وجمال التصوير، وقوة التأثير، ولكن هذه على قلتها وعموميتها ميدان لتنافر الآراء، واختلاف الأذواق.

وهناك فريق آخر لم يظفر بهذه الدراسات الأجنبية، فوقف في مباحثه النقدية عند ما كتبه الأقدمون من نقاد الأدب العربي أمثال قدامة وابن رشيق والآمدي والجرجاني وغيرهم ممن غلبت على مذاهبهم الأفكار الجزئية، والمباحث الموجزة الضيقة، والنظرات السريعة، إذ قلما تجاوزوا في نقدهم الكلمة المفردة، والصورة الفذة، والمعنى المستقل يبتكره هذا فيأخذه الأخر صرفًا، أو يتصرف فيه مجيدًا فهو صاحبه، أو مخطئًا فهو سارق ممقوت. وهكذا بقي النقد عند هؤلاء - لأسباب شتى. محصورًا في دائرة شكلية هي جسم الأدب لا روحه، هي هذه الناحية اللفظية، أو المعنوية الفردية دون عناية بوحدة القصيدة، ووحدة الديوان، وبغير التفات إلى شخصية الشاعر أو شخصية الأدب كله في بيئة من البيئات، أو عصر من العصور.

وهذا الفريق الثاني أخطأ خطأين واضحين:

الأول: قناعته بما كتب السابقون، ثم اقتناعه كذلك. فأخذ يردده دارسًا مدرسًا، لم يعن بمناقشة هذه الآراء السالفة لعله يرى في صوابها

عين للقراءة

خطأ أو في خطئها صوابًا، ولكم يجد القارئ - في مثل الأغاني - أحكامًا نقدية كان وحيها العصبية الدينية أو المذهبية، أو القبلية، أو التأثر الوقتي دون أن يكون للنقد الفني أو الموازنة العادلة فيها مجال؛ فهي لذلك موضع الظنة، وموطن الرفض والإنكار. على أن هذه النظرات النقدية بقيت كأنها كل ما نبغى من ذُخر أدبي، لم يضف إليها جديد حتى من صنفها، وأخذ المعاصرون إلى عهد قريب يقلدونها حينما يعرضون لنقد أديب معاصر؛ فالاتجاه كله إلى خطأ نحوي أو عروضي أو معنى مسروق، أو خروج على ما رسم السابقون.

الثاني: أن هذا الفريق، فيما يظهر، يأخذ الأدب العربي كأنه وحدة مستقلة، وجد وعاش غير متأثر بشيء، أو صادر عن نفس، أو متجه إلى قراء وسامعين في مناسبات شتى وحالات متباينة. وهو لذلك، حين ينقده، يتناوله بهذا الروح نفسه؛ فلا يفكر إلا فيما أمامه من لفظ يدل على معنى، ناسيًا أن هذا الأدب يحمل في ثناياه بيئته التي نبت فيها، وعقل صاحبه وشعوره ومزاجه، وشخصيته كلها، ثم يتأثر طردًا وعكسًا بقرائه وسامعيه ... هذا وغيره لا بد أن يلحظه الأديب الناقد قبل أن يصدر حكمه على الأدب وصاحبه؛ فالناقد تعوزه أشياء أخرى هي قوام فنه وعونه على ما يزاول من درس وتقدير.

ومن أهم ذلك هذه الدراسات النفسية التي تمهد لدرس النقد الأدبي كما تمهد لدرس البلاغة، وليس عجيبًا بعد هذا أن نرى في اللغات الأجنبية أبحاثًا يصح أن نسميها علم النفس الأدبي .. ألا إن الأدب العربي لم يخلق وحدة منفصلة، فيجب ألا ينقد وحدة شاردة.

حاول الفريق الأول أن يخلع على الأدب العربي ثوبًا قُدّ على غير مثاله فبدا مضحكًا مرفوضًا، وعجز الفريق الثاني أن ينسج له ثوبه القومي فبقى الأدب لذلك عاريًا يتطلب منا حقه من الثياب.

- ٢ -

أمام هذا القصور كان لا بد من تنظيم دراسة النقد الأدبي، وإقامته على أسس سليمة. وسلوكه خططًا واضحة ليستطيع النهوض بواجبه بين الدراسات الأدبية الأخرى، وليبرأ قبل ذلك من هذه الآفات. كان لا بد أن نسلك فيه نفس الطريق التي سلكناها في الأدب؛ فقد درسناه من الناحية التاريخية، ومن الناحية الفنية، فتوافر لنا درسان هما الأدب، وتاريخه. كذلك لا بد من الوقوف عند النقد من حيث هو فن له أصوله وطرائقه فهو الدرس الفني، ومن حيث ماضيه وأطواره فهو الدرس التاريخي.

(١) تتناول الناحية الأولى هذه الأصول العامة للنقد الأدبي، وبيان العناصر التي لا بد من توافرها في النص الأدبي ليكون صالحًا للبقاء، ثم شرح المقاييس العامة للفنون المختلفة، والدراسات الأخرى المتصلة بها، والخواص الشائعة في الأدب العربي ومن ذلك نستطيع أن نحصل على هذه القوانين الإجمالية للنقد العربي. وأقول القوانين الإجمالية لأن القواعد المفصلة ليست من طبيعة النقد، ولا من شأن الفنون جميعًا. وفوق هذا فإن النقد، لا يزال - وسيبقى - منطقة مباحة للعلماء والفنيين.

عبقة القراءة

(٢) والناحية الأخرى تُساير هذا الفن في أطواره التاريخية ومظاهره في الأدب العربي منذ نشأته في الجاهلية إلى اليوم؛ فهي تسجل الأصول التي اتخذها النقاد في كل عصر أساسًا لأحكامهم اللفظية والمعنوية، والعوامل التي أبقت على هذه الأصول أو غيرتها، ثم المؤثرات التي عرَّضت الأحكام للحق أو الباطل، ومظاهر الحضارة العربية والأجنبية التي كان لها سلطان على فن النقد الأدبي فسارت به في طريقه الطبعي أو وقفته عند حد لا يتعداه.

فتجد أن المنهجين لازمان وكلاهما يتم الآخر ويُعينه، ثم يلتقيان آخر الأمر، فيُكوِّنان لنا فن النقد الأدبي أو علم ذلك، ونتخذه مقياسًا نحكم به على الأدب العربي القديم، ومصباحًا نهتدي به في إنشاء الأدب العربي الحديث.

عُنيت كلية الآداب بهذين الدرسين فأنشأ قسم اللغة العربية درسًا للنقد الأدبي من حيث هو فن جميل له أصوله، ودرسًا لتاريخ النقد العربي له مباحثه وميادينه؛ فمنذ سنين أربع كان زميلي وصديقي المرحوم الأستاذ طه أحمد إبراهيم يقوم بإلقاء محاضرات في تاريخ النقد الأدبي عند العرب على طلبة السنة الرابعة من قسم اللغة العربية، وكانت تلك المحاضرات أساسًا لهذه الفصول التي نمهد لها بهذه الكلمات، وكنت بجانبه أدرس لطلبة السنة الثالثة بعض أصول النقد الأدبي، ومقاييسه العامة فأعالج بذلك الدرس الفني الآخر. ومن الحق علينا لتاريخ هذه الدراسات أن نقول: إن عالمنا الجليل الأستاذ أحمد أمين كان قد سبقني، فبدأ دراسة النقد الأدبي في كلية الآداب منذ سبع سنين، ثم

عاد يدرسه هذه الأيام. ونحن نرجو أن يطَّرد سير هذه الأبحاث فتبلغ ما هو مأمول لها من النضج والكمال.

- ٣ -

أما بعد، فهذه فصول في نقد الأدب العربي، كتبها زميلنا المرحوم الأستاذ طه إبراهيم؛ وهي كما يرى القارئ جزء من كتاب كان ينوي به إتمام هذا التاريخ، فحال الموت دون ذلك، وفقدنا بفقده صديقًا حميمًا، وزميلًا كريمًا. ولست أريد التورط في عرض هذه الفصول وقضاياها؛ فليست تقتضينا مثل هذا الجهد ما دامت في هذا النظام القويم، والوضوح التام، والاحتياط في الأحكام. وإنما يعنيني أن أشير إلى ظاهرة كانت أبرز ميزات المؤلف، وهي كذلك تتراءى للقارئ في جميع هذه الصفحات: الذوق الأدبي الصادق، فلقد بلغ من صدق الحس، وصفاء الشعور درجة نادرة، لم أرها مرة تخطئ في نقد الأدب وتقديره. وكانت أعراض التكلف تصادف منه نفورًا شديدًا سواء في الطبائع وفي الأساليب.

هذا الحس الصادق، والجد المتواصل، والإخلاص في العمل، مع عوامل أليمة كانت تتلاقى في نفسه تياراتها ... كل تلك آذته فذهب ضحيتها قبل أن يرى آثاره هذه منشورة يتداولها القراء.

وهنا قام زملاؤه في قسم اللغة العربية بكلية الآداب بنشر هذه الفصول وفاء له، وبرًّا بجهده العلمي، وإشادة بحق الأموات على الأحياء. فإذا كان هؤلاء الزملاء الأفاضل لا يقبلون شكرًا على ما قدَّموا؛ فلعل الفقيد في مثواه يقبل منا هذه الذكرى إن نفعت.

عينة للقراءة

والسلام عليه ورحمة الله.

نوفمبر سنة ١٩٣٧

أحمد الشايب

المدرس بكلية الآداب

عينة للقراءة

مُقَدِّمَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

من علوم اللغة العربية علم يسمى علم البيان، والذين أطلقوا عليه هذه التسمية لا يريدون منه هذا المعنى الضيق الذي يراد من علم البيان أحد فروع علوم البلاغة، لا يريدون منه الإبانة عما في النفس بطرق مختلفة، حقيقة حينًا، ومجازًا حينًا آخر، وإنما يريدون منه معنى أعم من ذلك، معنى يشمل علوم البلاغة الثلاثة، معنى يراد به الإفصاح عما في النفس وعما يجيش فيها من الخواطر والأفكار في عبارات تتفاوت منزلتها في الإصابة وفي الوضوح؛ يريدون منه كل ما يدخل في الإنشاء وفي طرقه من فصاحة المفرد وبلاغة الكلم؛ يريدون به ما في الكلام من عناصر الحسن، ومظاهر الضعف، وملاءمته للذوق وللحال أو نبوٍّ عنهما؛ يريدون به ما يعرض للكلام من الفصاحة والبلاغة وهيئات الحسن، فهو إذن يشمل علوم البلاغة الثلاثة، يشمل المعاني والبيان والبديع.

وقد اتخذ هذا العلم في اللغة العربية مناحي مختلفة، ودرس لغايات مختلفة، فقد نشأ عند المتكلمين، في حجر المعتزلة على

عبقة القراءة

الأخص، ونشأ عند أصحاب الجدل والحوار والأجوبة القوية، وعند جماعة من الكتاب حملوا إليه شيئا من أمزجتهم الأجنبية ومن ذهنيتهم، وقام على بعض الأسس التي وردت عن العرب في صدر الإسلام من الأمور التي يجب أن يعمد إليها الخطيب والمجادل أو القاص حتي ينال من النفس وحتى يصل إلى ما يريده من التأثير والإقناع.

فعلى الخطيب أن يحذر التوعر، لأن التوعر يدعو إلى التعقيد في الكلام، والتعقيد يطمس المعاني ويشين الألفاظ؛ وكذلك عليه أن يلائم بين المعاني التي يدلي بها وبين الذين يستمعون لها، والحالات التي تقال فيها، فيجعل لكل طبقة كلامًا، ولكل حالة مقامًا، فإن خطب الفيلسوف ابتعد عن مصطلحات الفلسفة، وإن جادل أشباهه أو حاورهم كان بهذه المصطلحات أولى. ذلك بعض ما ينصح به بشر بن المعتمر الخطباء وأهل الجدل، وتلك صورة من صور علم البيان في طوره الأول، كان إرشادًا، وتعليمًا للذين يريدون إصابة القول، ويحرصون على قوة الإقناع، كان رسمًا ونهجًا للخطباء، ولرجال الفرق المذهبية، ولدعاة المذاهب السياسية على اختلافها، وللذين يتصدون للكلام أمام الجموع الكثيرة في مساجد البصرة والكوفة. وهذه الصورة الأولى لعلم البيان ماثلة واضحة في أول كتبه؛ في كتاب البيان والتبيين لأبي عثمان الجاحظ.

وكأن أمور الحياة الفكرية بعد الجاحظ بدلت من سبيل علم البيان، وغيرت من وجهته، ونوعت من أغراضه، فقد قويت معارف العرب بما يراه غيرهم في علم البيان، فأدخلوا فيه كثيرًا من أفكار هذه الأمم وذهنياتهم، وطرق التفكير عندهم؛ كذلك تغيرت نظرة العرب

أنفسهم إلى علم البيان، وجعلوا يريدون منه أمورًا لم يكن يريدها أسلافهم.

لم يعد الإرشاد مقصورًا على المناحي التي يحتذيها الخطباء وأهل الجدل، بل دخل في هذا المجال الشعر والنثر؛ كيف تجيء القصيدة سائغة مقبولة، وكيف تنشأ الرسالة إنشاءً بليغًا؟ أصبح المنهج يرسم للأدباء جميعًا شعراء وكتابًا، فإن ظل علم البيان في سبيله الأولى، وموضوعه الأول، فإن تلك السبيل وهذا الموضوع قد انفسحا انفساحًا كبيرًا، وشملا الهداية إلى صناعة الأدب وفنونه المختلفة.

وأما الجديد المحض في علم البيان فهو الخوض في تحليل عناصر الأدب، ومعرفة الوجوه التي بها يفضل قول قولًا، هو الخوض في تحليل الأدب تحليلًا ممتزجًا بروح فلسفية عند رجل كقدامة بن جعفر، أو تحليلًا أدنى طريقًا إلى الذوق العربي عند رجل كأبي هلال العسكري. أين مكامن الحسن في الكلام؟ أفي ألفاظه؟ أفي معانيه؟ أفيهما معًا؟ وإلى أي شيء يعمد الباحث وراء الروعة والقوة والحسن في الشعر والنثر؟ وكيف نصل إلى تقدير الكلام والحكم عليه؟ والجديد كذلك أن علم البيان أصبح لا يدرس على هذا النحو لغرض فني فقط، هو الاطلاع على الفصاحة والبلاغة في منثور كلام العرب ومنظومه، بل أصبح أيضًا يدرس لغرض ديني، يدرس لخدمة المتكلمين الذين يتعرضون لإثبات إعجاز القرآن، فالقرآن معجز، معجز بما فيه من فصاحة رائعة، ونظم متين، وأسلوب فاتن، وألفاظ هي في المكان الأسمى من العذوبة والسهولة؛ فكيف السبيل إلى تذوق شيء من ذلك

عينة للقراءة

في القرآن؟ بمعرفة مناحي القول عند العرب، ومعرفة الحسن الرائع في الكلام.

وسواء أكان علم البيان يدرس لتمييز جيد الأدب من رديئه أم كان يدرس للوقوف على إعجاز القرآن، فإن الفن هو الذي كان يحركه، وأصول الجمال هي التي كانت دعامة له. وعلى كل حال فإن علم البيان هنا لم يعد رسمًا وهداية، بل تحليلًا ونقدًا. وإذ أن محاسن الكلام كثيرة، فقد أخذ علماء البيان يتلمسون حصرها، ويرجعون كثيرًا منها إلى الكلام في الحقيقة والمجاز والتشبيه والاستعارة والذكر والحذف والتقديم والتأخير والفصل والوصل الخ. أخذوا يحصون هذه المحاسن ليستعينوا بها على تذوق الأدب وعلى تذوق الروعة والبهجة في القرآن الكريم.

وكذلك صار علم البيان نقدًا، وكذلك دفعته مسألة الإعجاز إلى أن يخوض في تحليل فنون القول، وإلى أن يعرف ضروبه ومناحيه، ومواضع الحسن فيه، صار علم البيان نقدًا، ولكنه نوع من النقد خاص، أو هو ناحية من نواحي النقد بالمعنى الذي تدل عليه هذه الكلمة في القديم والحديث، هو نقد بياني، إذ أنه أمس بطرق الإبانة والإفصاح، بأحوال الإسناد كما يقول علماء البيان، أو هو ناحية من نواحي النقد الذي يعرف بالنقد الأدبي. فليس كل نقد يتصل بالصياغة والمعاني، وليس كل نقد متصل بالصياغة والمعاني يجري على هذا النحو. هناك كلام في الشعر وفي النثر غير ما يذكره علماء البيان. وهناك كلام في الصياغة والمعاني من جنس غير الجنس الذي يذكره علماء البيان.

عين للقراءة

فمن البحوث الأدبية أن نقول إن الشعر الجاهلي كان قويًا جياشًا بالأغراض في البادية، يسيرًا خفيفًا في القرى العربية، وأن نوازن بين النسيب الأموي وصدقه وصفائه، وبين النسيب في أوائل العصر العباسي، وأن نفطن إلى ما أدخله المحدثون من أمثال بشار وأبي نواس ومسلم وأبي تمام من الجديد في الأدب، من الجديد في صياغته كالحرص على البديع، والجديد في معانيه كالغلو والنظرات الفلسفية، والتفكير العلمي.

ومن البحوث الأدبية أن نخوض في الشعراء والكتاب، وفي حياتهم وثقافتهم، وأن نحلل آثارهم الأدبية متصلة بنشأتهم وحالاتهم النفسية وسنهم، وما كانوا فيه من هدوء ودعة، أو صخب واضطراب. من البحوث الأدبية أن نعلل: لماذا لم يمدح امرؤ القيس، ولا عمر بن أبي ربيعة، ولماذا عدَّ جرير والفرزدق والأخطل رجال الطبقة الأولى في الإسلاميين، وما هي خصائص كل منهم، وأيهما أشعر من صاحبه، أبشار أم مروان؟ أمسلم أم أبو نواس؟ وما خصائص المذهب البياني في القرن الرابع؟ ولماذا أجاد الحريري في صناعة المقامات وأقصر في الرسائل؟ وما وجوه الشبه بين النابغة الذبياني والأخطل، وبين المتنبي وابن هانئ الأندلسي؟

كل أولئك كلام في الأدب لا يتعرض له علماء البيان. كذلك ليس من بحوثهم الكلام في الصياغة والمعاني على وجه التعليل والتفسير أو تلمس الأسباب مثلًا. فعدي بن زيد رقيق الصياغة على جاهليته لأنه عاش في الحضر، وجرير أرق شعرًا من الفرزدق لأنه أرق طبعًا، وكثير من عبارات أبي تمام معقد مشتبك لأنه حفل بالبديع، وبضخامة

عبقة للقراءة

الألفاظ، وبقهر المعاني الفلسفية لصياغة تحوي كثيرًا من المحسنات. كذلك ليس الكلام في المعاني دائمًا حول الغلو أو القصد، والسمو أو الضعة، والضخامة أو الهزال؛ فقد يخوض الباحث في الكشف عن سرها ومأتاها. الفرزدق أضخم معاني من جرير في الهجاء والفخر لأنه كان أضخم حسبًا، وابن هانئ كثير الغلو، كثير الإغراق في مدائحه لأنه اتصل بالعبيديين الغلاة، والقدماء أكثر ابتكارًا في المعاني، والمحدثون أكثر ابتداعًا فيها وتوليدًا.

كل أولئك كلام في الأدب وفي عناصره ليس من طبيعة كلام البيانيين ولا أذواقهم؛ ولا اتجاهاتهم في البحث. وكل أولئك من موضوعات فن آخر هو النقد الأدبي، وهو فن أدنى إلى البحث في الأدب وحياته، وإلى البحث في الأدباء وكيف أنتجوا هذا الأدب. هو فن متشعب فسيح يتصدى للتحليل والتعليل والشرح، ويتصدى لذكر مميزات العصور الأدبية، ومميزات الشعراء والكتاب، ويتصدى فوق ذلك لتحليل عناصر الأدب تحليلًا قائمًا على الذوق الصافي، تحليلًا أرق وأبهج من تحليل البيانيين.

أجهل العرب فن النقد الأدبي؟ إنهم لم يعدوه في علوم اللغة العربية لأنه كان في نظر كثير من الباحثين جزءًا من علم البيان، كان من مسائله، ولكن علم البيان كما عرفنا لا يتصدى إلا للصياغة والمعاني، ولا يخوض عادة في البحوث التي أوردنا أمثلة لها، والتي هي من ميادين النقد الأدبي. لم يفرق العرب بين علم البيان وفن النقد الأدبي، تفرقة واضحة متميزة كما فرقوا بين الصرف والاشتقاق مثلًا على قرب أبحاثهما.

عينة للقراءة

على أن من الكتب التي ألفت في البحث عن جمال القول ما يدل دلالة لا لبس فيها على أن العرب عرفوا فن النقد الأدبي كنهًا وحقيقة، وإن لم يعرفوه عنوانًا لطائفة من المسائل، وإن لم يعرفوه علمًا أو فنًا له المبادئ العشرة التي قرروها في كل علم وفن. خذ ما قاله ابن سلام الجمحي في كتابه طبقات الشعراء وما جاء به القاضي الجرجاني في كتاب الوساطة، وخذ تلك البحوث التي كتبها أمثال ابن شهيد الأندلسي، وخذ الأحاديث المبثوثة عن الشعراء في كتاب الأغاني، أو في الذخيرة لابن بسام، خذ هذه الكتب وادرس ما جاء فيها وخذ هذه الأحاديث وتفهمها فستجد أن العرب عرفوا النقد الأدبي معرفة دقيقة وإن لم يدونوه علمًا أو فنًا، وستجد أن هناك بونًا بين هذه الكتب وبين الكتب التي ألفت في علم البيان كدلائل الإعجاز أو المثل السائر أو الطراز. علم البيان وفن النقد الأدبي شيئان إذن لا شيء واحد. نعم قد يجتمعان في تحليل عناصر الحسن في القرآن الكريم وفي الأدب عامة، ولكنهما بعد ذلك لا يلتقيان. فعلم البيان يمضي إلى طبيعة طوره الأول من هداية الكتاب والشعراء، ويمضي النقد الأدبي إلى بحوثه التي أشرنا إلى شيء منها وتاريخ العلمين أو الفنين يرينا بينهما فروقًا أخرى، فإذا كان النقد الأدبي عند العرب يرجع في نشأته إلى أصل واحد، فإن علم البيان كما رأينا يرجع إلى جملة أصول فالنقد الأدبي عربي محض أو هو كذلك حتى تمكن ورسخت روحه ومناحيه وعلم البيان فيه مزاج عربي وفيه أمزجة ليست بعربية، وإذا كان النقد قد ترعرع ونما في كنف الشعراء والرواة والمتأدبين، فإن علم البيان ترعرع ونما في كنف المتكلمين. ومن هم إلى الفكر والعلم أقرب. ولذلك أثره في بحوث

عصير الكتب للقراءة

العلمين وفي اتجاهات كل منهما. وإذا كان النقد الأدبي ظهر في الشعر وظلت أكثر بحوثه في الشعر، فإن علم البيان ظهر في النثر وظلت أكثر بحوثه في النثر، بل من البيانيين من يرى البلاغة والإبداع في النثر وحده كصاحب الطراز. فروق إذن عدة في النشأة، وفي المنزع، وفي الرجال، وفي الاتجاه بين علم البيان وبين النقد الأدبي.

ذلك المدلول من النقد هو الذي نعمد إليه في هذا الكتاب، فنحن نريد تدوين نظرات العرب في أدبهم، وفي شعرائهم وكتابهم؛ نريد أن نعرف مبلغ فطنتهم إلى تعليل المسائل الأدبية، ومبلغ قدرتهم على تفسيرها؛ نريد أن ندرس تاريخ هذه النظرات وهذه الميول، وما طرأ عليها من تبدل، وما جد فيها عصرًا بعد عصر.

ولقد نعلم أن هناك ضروبًا من النقد كثيرة، منها البياني الذي أشرنا إليه وسنعنى به وسندرسه، وسنعرف روحه وتاريخه وبعض كتبه، لأنه جزء من النقد الأدبي فيما نرى. فأما غيره من النقد الذي يتصل بشكل الأدب وبنيته وعباراته من حيث الصحة والإعلال، أو اللحن والإعراب، أو الأعاريض والقوافي، فذلك ما لا نذكره إلا نادرًا وبملابسات قوية، لأنه لا مساس له بالذوق ولا بالجمال.

عينة للقراءة

الْبَابُ الْأَوَّلُ

النقد الأدبي في العصر الجاهلي

كل شيء في حياة العربي في الجاهلية راجع إلى الصحراء. فنظام معيشته وطريقة تفكيره، ونوع شعوره، وما اعتاد من كريم العادات وذميم الخصال، وما وهم من قوى تنصر وتخذل، وتسعد وتشقي. كل أولئك من أثر الحياة البادية التي يحياها، ومن أثر المشاهدات التي يراها، ومن أثر الفيافي الموحشة التي تطالعه صباح مساء. فالصحراء هي التي جعلت العربي شجاعًا متفانيًا في الشجاعة، فخورًا إلى أبعد غايات الفخر، زاهيًا بنفسه حتى الإغراق، معجبًا بقومه كل الإعجاب؛ وهي التي جعلته سمح النفس، ندي الكف، يجود بأنفس ما لديه، ويجود في الوقت العصيب، وهي التي جعلته لصًا يستاق الأموال ليست له، ويغير على الأحياء للنهب والسلب. والصحراء هي التي جعلت العربي راحلًا لا يكاد ينزل، ظاعنًا لا يكاد يقيم يبتغي العشب لماشيته، ويتحرى مساقط الماء في الصيف والربيع.

كان العربي يكدح في سبيل العيش كدحًا: وكان يلقى عنتًا كبيرًا من أرضه المجدبة التي لا تكاد تسعفه بالحاجة من الأشياء. وهو في رحيله على مطيته، وفي جلبه الماء من الحوض، وفي تأبيره النخيل